CHRONOS
Revue d'Histoire de l'Université de Balamand
43, 2022, pp. ////

أسوار مدينة دمشق في كتابات الحجّاج الأوروبيّين (القرن الرابع عشر ـ مطلع القرن السادس عشر)

بيار مكرزل[1]

ملخّص
شهدت أسوار دمشق عبر التاريخ سلسلة من التطوّرات والتغيّرات والإضافات على بنائها، ولعبت دورًا أساسيًّا في الدفاع عن المدينة وحماية سكّانها. ومنذ القرن السادس الميلادي، زار حجّاج أوروبيّون مدينة دمشق وأعطوا وصفًا دقيقًا للمدينة، وخصّصوا قسمًا في كتاباتهم لوصف أسوارها. ومنذ أواخر القرن الرابع عشر، ازداد اهتمام الحجّاج بأسوار دمشق وكتبوا روايات عنها صارت متداولة ولاقت انتشارًا واسعًا في الأوساط الأوروبيّة منذ منتصف القرن الخامس عشر. فما سبب اهتمام الحجّاج الأوروبيّين بدمشق؟ ولماذا احتلّت أسوارها مكانًا هامًّا في كتاباتهم؟ وما المعلومات التي تفرّد بذكرها الحجّاج الأوروبيّون عن أسوار دمشق ولم تذكرها المصادر الأخرى المعاصرة، بخاصّة العربيّة؟

Abstract
Throughout history, the walls of Damascus have undergone a series of evolutions, changes and additions to its construction, playing a fundamental role in the defense of the city and the protection of its inhabitants. From the 6th century, European pilgrims visited Damascus and gave a precise description of the city, devoting part of their writings to the description of its walls. From the end of the fourteenth century, pilgrims' interest in the walls of Damascus increased, and stories about them had been widely circulated in European circles since the mid-15th century. What was the reason for the interest of European pilgrims in Damascus? And why did its walls figure prominently in their accounts? And what information did European pilgrims provide about the walls of Damascus that were not mentioned by other contemporary sources, notably Arabic?

[1] الجامعة اللبنانيّة.

كانت إحدى الخصائص الأساسيّة لهيكليّة المدينة العربيّة التقليديّة وبنيتها تتمثّل بتقسيمها إلى منطقتين متميّزتين، ذات عناصر متناقضة بشدّة: منطقة مركزيّة تتمحور فيها الأنشطة الاقتصاديّة الأساسيّة، ومنطقة مخصّصة بشكل رئيسي للسكن. فقسّمت المدينة، نتيجة ذلك، إلى جزء عام يضمّ الأنشطة الاقتصاديّة والثقافيّة والدينيّة، وجزء خاص حيث تنمو الحياة الأسريّة وتتطوّر. فيتوافق وجود منطقتين في المدينة، إحداهما عامّة والأخرى خاصّة، مع التقسيم الوظيفي للمدينة[٢].

شكّلت مدينة دمشق نموذجًا للمدينة العربيّة. فكانت مكانًا يقيم فيه الحكّام والقضاة والعلماء، ويعمل فيه التجّار والحرفيّون، ويبيع فيه السكّان والقرويّون، القادمون من المناطق المجاورة، منتجاتهم ويشترون ما يحتاجونه، ويقصده التجّار من أماكن وبلدان بعيدة. فامتلكت هيكليّة المدينة كلّ المقوّمات التي تجعلها قادرة على تلبية كامل احتياجات مَن يقيم فيها ومَن يقصدها. ويعيش معظم السكان في وسط المدينة في أحياء تتألّف كلّ منها من عدد كبير من الأزقّة والطرق المسدودة المطلّة على شارع رئيسي. ولكن تكون المنازل، في ضواحي المدينة، أكثر اتساعًا وتحيط بها الحدائق. تخترق الأحياء السكنيّة شبكة طرق تصل أقسام المدينة بعضها بالبعض الآخر، وتشكّل محورًا يستقطب حركة النقل والتنقّل داخل المدينة. ويقع المسجد الرئيسي ومقر الحاكم والأسواق على امتداد هذا المحور. وبشكل عام، في دمشق والمدن العربيّة عامّة، بدءًا من وسط المدينة التي يتمركز فيها النشاط التجاري، تُقام شوارع مفتوحة وشاسعة نسبيًّا ومستقيمة، تشكّل نقطة وصل بين أبواب المدينة وتؤمّن احتياجات حركة مرور المشاة والحيوانات وعربات النقل. وكانت لمدينة دمشق أسوار تميّز حدود الوضع القانوني الخاص بالقسم المبني من المدينة الذي يتوزّع إلى وحدات إداريّة واقتصاديّة: الأحياء والأسواق والساحات العامّة والأزقّة. فشكّلت هذه الأسوار تعبيرًا عن اختلاف في الطبيعة والوظيفة بين مكان السكن الذي يتكوّن من أزقّة ومتاهات وزواريب مسدودة محاطة بمنازل ضيّقة، ومساحات خارجيّة تتألّف من أراضٍ زراعيّة تحيط بالمدينة.

شهدت أسوار دمشق عبر التاريخ تطوّرات وتغيّرات وإضافات على بنائها، ولعبت دورًا أساسيًّا في الدفاع عن المدينة وحماية سكّانها، وذكرت المصادر العربيّة معلومات كثيرة عنها (Mouton, Guilhot, Piaton 2018: 48-70 ؛ ديّوب ٢٠١٢: ٢٢٣-٢٤١).

وتناولت دراسات عديدة أسوار مدينة دمشق لكنّها لم تعتمد بشكل أساس على كتابات الحجّاج الأوروبيّين في العصر المملوكي الذين قدّموا معلومات جديدة وهامّة عن أسوار دمشق غير مذكورة في المصادر المعاصرة لتلك الحقبة. فأسوار دمشق لم تسترعِ إهتمام المؤرّخين والجغرافيّين والرحّالة العرب فقط، بل احتلّت أيضًا مكانةً هامّةً في المصادر الأوروبيّة، خاصّةً في كتابات الحجّاج والرحّالة الذين كانوا يزورون المدينة. ومنذ القرن السادس الميلادي، زار حجّاج أوروبيّون مدينة دمشق وأعطوا وصفًا دقيقًا للمدينة، وخصّصوا قسمًا في كتاباتهم لوصف أسوارها. ومنذ أواخر القرن الرابع عشر حتّى مطلع القرن السادس عشر، ازداد اهتمام الحجّاج بأسوار دمشق وكتبوا روايات عنها صارت متداولة ولاقت انتشارًا واسعًا في الأوساط الأوروبيّة منذ منتصف القرن الخامس عشر. فما سبب اهتمام الحجّاج الأوروبيّين بدمشق؟ ولماذا احتلّت أسوارها مكانًا هامًّا في كتاباتهم؟ وما المعلومات التي تفرّد بذكرها الحجّاج الأوروبيّون عن أسوار دمشق ولم تذكرها المصادر االمعاصرة، بخاصّة العربيّة منها؟

---

[٢] للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، راجع: Garcin 1995: 129-171.

شكّل ما يكتبه الحاج الأوروبي وسيلة يحكي بواسطتها تجربته الخاصّة طوال رحلة الحجّ إلى فلسطين وزياراته للأماكن والمدن المصريّة والشاميّة، التي تبدو كمغامرة مليئة بالمخاطر وبمشاهدات غريبة، تهدف إلى تشجيع المتردّدين على القيام بالرحلة وزيارة الأرض المقدسة. لكن تكمن أيضًا أهميّة كتابات الحجّاج في شخصيّة مؤلّفها، عندما يقدّم معلومات أخرى غير تلك المعروفة للجميع وورد ذكرها في أدلّة السفر التي كانت منتشرة في أوروبا على نطاق واسع. فكتابات الحجّاج الأوروبيّين هي إنعكاس لثقافة وبيئة فكريّة واجتماعيّة. لذلك يظهر الفرق واضحًا بين ما يكتبه رجل دين أو فارس أو شخص نبيل أو رحّالة مهتم بالسفر. فالهدف الرئيسي للحجّاج الأوروبيّين، من خلال ما يكتبونه في رحلاتهم إلى الشرق، يتمثّل بتقديم معلومات جديدة يمكن أن تلقى رواجًا في أوروبا، خصوصًا أنّه منذ القرن الخامس عشر صارت أحوال وأخبار الشرق معروفةً بالنسبة للأوروبيّين الذين كانوا ينتظرون معلومات لم يسمعوا بها من قبل، تثير فضولهم للتعرّف على حقيقة أحداثها. إنّها الفرضيّة التي سنسعى من خلال دراستنا هذه إلى التوسّع فيها وتحليلها.

اختلف اهتمام الحجّاج والرحّالة الأوروبيّين بمدينة دمشق وفقًا للأشخاص وللزمن وللأسباب التي تدفعهم لزيارة دمشق والإقامة فيها. فالزيارات التي قام بها أوروبيّون إلى دمشق تندرج في إطار ديني، حيث كانت المدينة تشكّل محطّة للحجّاج في طريقهم إلى القدس في فلسطين. وبدأ الحجّاج الأوروبيّون يتوافدون إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين منذ القرن الرابع الميلادي. وأخذت أعدادهم تزداد مع تشييد هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين، كنيسة القيامة وإكتشاف مكان الصليب المقدّس عام ٣٢٦ وغيرها من الأماكن والأشياء المرتبطة بيسوع المسيح التي ورد ذكرها في الكتاب المقدّس. وبعد أن تأسّس الكرسي البطريركي في مدينة القدس العام ٤٥١، جرى تفعيل الحجّ وتشجيع الحجّاج على زيارة القدس التي تُعتبَر المدينة المقدّسة لكلّ المسيحيّين. وابتداءً من القرن السادس الميلادي، لم يعد الحجّ مقتصرًا على الأماكن المقدّسة في فلسطين بل شمل المدن الواقعة شمالًا وصولًا إلى أنطاكيا حيث تمّ بناء مزارات لتكريم القدّيسين في الأماكن التي حصلت فيها معجزات (Maraval 2001:74-81; Graboïs 1998: 23). ولكن أوّل ذكر لمدينة دمشق في كتابات الحجّاج الأوروبيّين يعود إلى القرن السادس الميلادي. ففي العام ٥٦٠-٥٧٠، مرّ حاج من مدينة بياتشنزا Piacenza الإيطاليّة بدمشق خلال رحلة قام بها من القدس إلى أفاميا (شمال غرب مدينة حماة). وأفاد أنّه يوجد في دمشق دير مشيّد في المكان الذي إهتدى فيه القدّيس بولس إلى الديانة المسيحيّة، ويوجد شارع يسمّى "المستقيم" حيث تحصل فيه الكثير من المعجزات (Maraval 2002: 235). وفي عام ٦٣٦، احتلّ المسلمون فلسطين، وبسبب التغيّرات السياسيّة والعسكريّة التي شهدها الشرق، تراجع الحجّ الأوروبي إلى الأراضي المقدّسة بشكل تدريجي ولكنّه لم ينقطع نهائيًّا. فحوالى العام ٦٨٠، زار دمشق أسقف فرنجي يدعى أركولف Arculfe وأقام فيها بضعة أيّام. وترك لنا وصفًا للمدينة ورد فيه لأوّل مرّة ذكر لأسوار دمشق: "*دمشق مدينة ملكيّة كبيرة، تقع في سهل منبسط، تحيط بها أسوار محميّة بعدد من الأبراج...*" (Maraval 2002: 275).

مع نجاح الحملة "الصليبيّة" الأولى بالإستيلاء على فلسطين ومدينة القدس العام ١٠٩٨، عرف الحجّ، في الأعوام التالية لهذا الانتصار، حركة مزدهرة. ولكن كان من

الصعب في تلك الحقبة التمييز بين "الحاج" و"الصليبي". وبعد ذلك، صار الفرق واضحًا بين الأشخاص الذين يغادرون أوروبا إلى الشرق: "الصليبيّون" ركّزوا اهتمامهم على محاربة المسلمين وتنظيم أوضاعهم السياسيّة والإداريّة في المناطق التي احتلّوها، في حين أنّ الحجّاج، الذين أصبحوا يتمتّعون بالحماية لدى تنقّلهم في فلسطين، كرّسوا رحلتهم لممارسة عقائدهم الدينيّة وزيارة الأماكن المقدّسة لإيفاء نذورهم. كانت مدينة دمشق تخضع لسلطة المسلمين لذلك لم يتمكّن الحجّاج الأوروبيّون من زيارتها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وورد ذكر دمشق وأحداث مرتبطة بها في الحوليّات والمؤلّفات التي وضعها فرنج مقيمون في الشرق (Recueil des historiens 1844-1895, I-V). ولكن وصف مدينة دمشق وأسوارها أورده كاتب مجهول لسيرة وأعمال الملك الفرنسي لويس السابع، والأسقف اللاتيني لمدينة صور غيّوم الصوري Guillaume de Tyr (توفي العام ١١٨٦)، اللذان عرضا تفاصيل حصار مدينة دمشق لمدّة أربعة أيام العام ١١٤٨ خلال الحملة الصليبيّة الثانية التي قادها الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الجرماني كونراد الثالث (De Tyr 1824, III: 4-14; Michaud 1825, I: 215-223; Michaud 1829, I: 226-228).[٣] وبعدهما بقرن تقريبًا، وصف الأسقف اللاتيني لمدينة عكا جاك دو فيتري Jacques de Vitry (توفي العام ١٢٤٠) سور دمشق ولكنّه ركّز على أهميّة السور من الجانب الديني بسبب أنّ القدّيس بولس هرب من دمشق عبر السور تحديدًا من جهة باب كيسان جنوب شرق المدينة (Mouton, Guilhot, Piaton 2018: 22). فقد ورد في الكتاب المقدّس، أنّ القدّيس بولس هرب من دمشق ليلاً بمساعدة تلاميذه الذين دلّوه من السور في سلّ (أع ٩: ٢٥). وما ذكره الأسقف جاك دو فيتري بخصوص أهميّة سور دمشق من الناحية الدينيّة، صار متداولاً في أوروبا وأصبحت دمشق محطّة أساسيّة في رحلة الحجّ إلى القدس والأماكن التي يجب على الحاج أن يزورها في فلسطين وغيرها من البلاد المجاورة. ففي الخريطة التي وضعها العام ١٢٥٣ الراهب الإنكليزي ماتيو باريس Matthieu Paris (توفي العام ١٢٥٩) والتي تتضمّن المسارات والمسالك البرّيّة والبحريّة للسفر من أوروبا إلى مدينة القدس، مترافقة مع رسوم للمدن والأماكن التي تشكّل محطّات أساسيّة لرحلة الحج، يرد وصفًا لمدينة دمشق مع رسم لسورها ولباب القدّيس بولس (Porta Sancti Pauli). ونظرًا لأهمّيّة المعلومات التي أوردها ماتيو باريس، نُسِبَ إليه أنّه قام بنفسه برحلة حجّ من لندن إلى فلسطين العام ١٢٤٤ وزار كلّ الأماكن التي ذكرها في الخريطة التي وضعها لتكون دليل سفر من أوروبا إلى الشرق (Paris 1882: 123-140).

سقطت عكّا، العام ١٢٩١، آخر المدن التي كانت تخضع للحكم الفرنجي بأيدي المماليك، وبالتالي، زال الحكم الفرنجي في الشرق. وعلى الرغم من أنّ فكرة تنظيم حملة "صليبيّة" جديدة لاستعادة مدينة القدس بقيت راسخة في أذهان بابا روما وملوك الغرب، إلّا أنّ المصالح التجاريّة بين الغرب والشرق كانت أقوى. انقطعت حركة الحجّ الأوروبي خلال تلك الحقبة، ولكن بعد أن عقدت إتفاقيّات سياسيّة ودينيّة بين ملك أراغون خايمي الثاني، وبابوات روما وملك نابولي روبير دنجو Robert D'Anjou وزوجته سانشيا دو مايوركا

---

[٣] يمكن أيضًا مراجعة الترجمة العربيّة: تاريخ الحروب الصليبيّة. الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، صنعه باللاتينيّة وليم رئيس أساقفة صور، الجزء الثاني، نقله إلى العربيّة وقدّم له الدكتور سهيل زكّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، حارة حريك، ٢٠٠٣، ص. ٢٧٩-٢٨٥.

Sancha di Maiorca، من جهة، والسلطان الناصر محمّد بن قلاوون، من جهة ثانية، بين العامين ١٣٠٠ و١٣٣٠، عادت حركة الحجّ الأوروبي إلى فلسطين (Atiya 1938: 17-60; Alarcón y Santón, García De Linares 1940: 344-370; Castillani 1922: 5-6; Golubovich 1913, III: 233-234; Dansette 1979: 108-109). ولكن في العام ١٣٦٥، هاجم ملك قبرص بيار الأوّل مدينة الإسكندريّة واحتلّها لثلاثة أيّام ونهبها، فانقطعت العلاقات بين أوروبا والسلطنة المملوكيّة. وفي العام ١٣٧٠، عقد البنادقة، والجنويّون، والكتلان، وملك قبرص، معاهدة صلح مع السلطان الأشرف شعبان لمدّة عشرين عامًا، وتمّ الاتفاق على إطلاق الفرنج المسجونين في دمشق، وردّ ما تمّ أخذه من الإسكندريّة (إبن قاضي شهبة ١٩٩٤، ٣: ٣٨٠). عاد الأوروبيّون إلى ارتياد موانئ السلطنة المملوكيّة، وجرى توفير التسهيلات للأوروبيّين الراغبين في زيارة مدينة القدس وغيرها من الأماكن في الشام ومصر.

زار دمشق، بين النصف الثاني من القرن الرابع عشر ومطلع القرن السادس عشر، عدد من الحجّاج الأوروبيّين الذين أعطوا في كتاباتهم وصفًا للمدينة وأسوارها. فتذكر المصادر، إبّان القرن الرابع عشر، زيارة ثلاثة حجّاج فلورنسيّين، فقط، لمدينة دمشق. وذلك في العام ١٣٨٤، وقد تركوا كتابات وصفوا فيها أسوار مدينة دمشق. هؤلاء الحجّج هم ليوناردو فريسكوبالدي Lionardo Frescobaldi، جورجيو غوتشي Giorgio Gucci وسيموني سيغولي Simone Sigoli[٤]. قال فريسكوبالدي عن سور المدينة إنّه "*توجد نافذة في أسوار دمشق هرب منها القدّيس بولس من أولئك الذين أرادوا قتله بانزاله في سلّ إلى خارج المدينة*" (Frescobaldi 1948: 83). أمّا رفيقه غوتشي فقد أعطى وصفًا مفصّلًا عن أسوار دمشق مركّزًا على قوة دفاعاتها: "*..توجد أيضًا في أسوار دمشق نافذة هرب منها القدّيس بولس بعد أن قبض عليه اليهود ووضعوه في السجن... ودمشق المحاطة بالأسوار تبلغ مساحتها ثلاث مرّات مساحة مدينة فلورنسا، وهي محصّنة جيّدًا بسورين: سور يبلغ إرتفاعه ٣٠ براشيا* (حوالى ١٧ مترًا ونصف)[٥] *قوي جدًّا ويرتكز على خندق خارجي، وسور آخر يبعد عن السور الأول حوالي ١٥ إلى ١٦ براشيا* (٨ أمتار ونصف أو ٩ أمتار تقريبًا) *وأعلى منه بـ١٠ براشيا* (5,8 أمتار)، *وكلاهما يحتويان على فتحات في أعلى سطحيهما. وعلى مسافات متكرّرة، عند كل ٥٠ براشيا* (٢٩ مترًا)، *توجد أبراج مستديرة، أعلى من الأسوار، مع خندقين عميقين، واحد من الخارج والآخر من الداخل. وأسوار وخنادق المدينة المذكورة*

---

[٤] نشير الى أنّه في العام ١٣٣٦، وصف الحاج الألماني غيّوم دو بولدينسل Guillaume de Boldensele مدينة دمشق ولكنّه لم يذكر أسوارها. وفي العام نفسه، زار أيضًا دمشق الحاج الألماني لودولفوس دو سودهيم Ludolphus de Sudheim وكتب وصفًا مفصّلًا عنها ولكنّه لم يتحدّث عن أسوارها. وفي العام ١٣٨٣، وصل حاجّ فرنسي مجهول الإسم إلى بيروت وأكمل طريقه إلى نابلس في فلسطين مرورًا بدمشق، ولكنّه لم يترك أي وصف للأماكن والمدن التي مرّ عبرها خلال رحلته بل اكتفى بذكر نفقات سفره والضرائب والرسوم التي دفعها للسلطات المملوكيّة.

(De Boldensele 1997: 1027; De Sudheim 1884, II: 360-361; Journal 1895, III: 457-459).

[٥] وفقًا لكتب التجارة الإيطاليّة، براشيو braccio أو براشيا braccia وحدة قياس تساوي ٥٨ سنتمترًا. (Tarifa 1925: 26-27)

(دمشق) *قويّة جدًّا، ..."* (Gucci 1948: 140, 142). ووصف أيضًا سيغولي أسوار دمشق قائلًا: "*أسوار مدينة دمشق محكمة البناء بحجارة جيّدة، ويبلغ إرتفاعها ٣٠ براشيا* (حوالى ١٧ مترًا ونصف)، *مع العديد من الأبراج المستديرة التي يبعد الواحد منها عن الآخر حوالى ٢٥ براشيا* (حوالى ١٤ مترًا ونصف)، *وتوجد أسوار خارجيّة يبلغ إرتفاعها ٢٠ براشيا أو أكثر* (حوالى ١١ مترًا ونصف)، *وعليها أبراج مستديرة بعدد الأبراج المتواجدة على السور الرئيسي، وتوجد خنادق عرضها ١٦ براشيا أو أكثر* (حوالى ٩ أمتار) *محاطة جيّدًا بالأسوار*" (Sigoli 1948: 181).

قصد العديد من الحجّاج الأوروبيّين مدينة دمشق، في القرن الخامس عشر، منهم من وصف أسوار المدينة، وآخرون لم يذكروها وحصروا كتاباتهم بالحديث عن المدينة وأسواقها وسكّانها ومساجدها وكنائسها وحدائقها.[٦]

زار الفلمنكي غيلبير دو لا نوا Guillebert de Lannoy دمشق، العام ١٤٢١، وقال عن أسوارها: "*هذه المدينة قويّة جدًّا، يحيط بها سوران وأبراج جميلة جميعها لها أسطح وخنادق من دون مياه*" (De Lannoy 1840: 116-117). أمّا الحاج أنسيلمي أدورنو Anselme Adorno فأعطى في العام ١٤٧٠-١٤٧١، معلومات جديدة عن أسوار دمشق: "*قسم من المدينة محاط بأسوار قويّة فيها ثمانية أبواب... وجزء كبير من أسوار المدينة بناها فلورنسي وقع في غرام إبنة الأمير، فاعتنق الإسلام ليصبح باستطاعته أن يتزوّجها. ولا يزال رنكه وشعار مدينة فلورنسا ظاهرين، محفورين على الأسوار*" (Adorno 1978: 329-331).[٧] وأفاد الحاج الفلمنكي جوس فان غيستل Joos van Ghistele العام ١٤٨٣، أنّ مدينة دمشق محاطة بسورين فيها ثمانية أبواب (Van Ghistele 1998: 293). ومرّ الحاج الألماني أرنولد فون هارف بدمشق العام ١٤٩٨-١٤٩٩ وقال عنها "*إنّها ومدينة الإسكندريّة في أرض المسلمين وحدهما محاطتان بأسوار... وتوجد فجوة أو نافذة في السور هرب منها القدّيس بولس بمساعدة أصدقائه السرّيّين الذين دلّوه منها بسلّ إلى خارج السور هربًا من اليهود الذين كانوا يريدون قتله*" (Von Harff 1946: 230-231). وفي مطلع القرن السادس عشر، زوّدنا رحّالة يدعى لودوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthema بمعلومات كثيرة ومفصّلة عن مدينة دمشق. فقد قصد المدينة العام ١٥٠٣ وأقام فيها لعدّة أشهر لتعلّم اللغة العربيّة. ولكن على الرغم من أهميّة ما كتبه عن دمشق وسكّانها وعمرانها، فإنّه لم يأتِ على ذكر أسوار دمشق. أشار فقط إلى "*وجود برج في سور المدينة يقال إنّ القدّيس بولس كان مسجونًا فيه*" (Di Varthema 1863: 8-15). ومرّ بدمشق، العام ١٥٠٧-١٥٠٨، حاج نمساوي اسمه مارتينو بومغرتنر Martino Baumgartner وهو آخر حاج أوروبي تذكره

---

[٦] من الحجّاج الذين زاروا دمشق ووصفوا المدينة دون ذكر أسوارها، حاج فرنسي يدعى برتراندون دو لا بروكيير Bertrandon de La Broquière عام ١٤٣٢، وحاجان ألمانيّان ستيفن فون غومبنبرغ Stephan von Gumppenberg عام ١٤٤٩ وأورلخ ليمن Urlich Leman عام ١٤٧٢-١٤٨٠.
(De La Broquière 1892, XII: 32-38; Röhricht, Meisner 1880:107; Röhricht 1900: 119).

[٧] "*Magnam partem nurorum urbis construxit quidam Florentinus qui, amore filie admiraldi captus, sese ut eam uxorem ducere posset, Morum renegatumque fecit atque a fide apostatavit; cujus arma simulque civitatis Florentie in muris sculpta adhuc appaprent*."

المصادر قصد دمشق في أواخر العهد المملوكي. وأبرز ما يميزّ معلوماته عن مدينة دمشق وأسوارها أنّه ركّز على الرواية التي تفيد أنّ فلورنسيًّا بنى أسوار دمشق. وملخّص هذه الرواية أنّ تاجرًا فلورنسيًّا تميّز بثرائه وبحكمته وبمكانة مرموقة بين تجّار المدينة فقرّبه أمير دمشق منه، وجعله أحد رجال قصره، ونشأت علاقة صداقة بينهما، وكان الأمير يستشيره في كلّ أمر، وحظي باعجاب جميع رجال قصر الأمير. ووقع هذا التاجر الفلورنسي بغرام إبنة الأمير، وتزوّجها واعتنق الإسلام فنال تقدير كلّ سكّان المدينة وكامل البلاد. وعندما توفي الفلورنسي صار الناس في دمشق يكرّمونه كوليّ عُرِفَ بحكمته ويزورون قبره ويطلبون بركته. وبنى هذا الفلورنسي القسم الأكبر من أسوار دمشق ونقش عليها شعار مدينة فلورنسا (Baumgartner 1721, II-III: 585-589).

نستنتج، من خلال ما ذكره الحجّاج الأوروبيّون عن أسوار دمشق منذ القرن الرابع عشر وحتّى أواخر العصر المملوكي في الشام (١٥١٦)، أنّ الحجّاج الأوروبيّين أظهروا اهتمامًا، ليس فقط بالأماكن المقدّسة في فلسطين، بل بكلّ ما شاهدوه في بلاد الشام. هم كانوا يدركون أنّ دمشق لا تشكّل جزءًا من الأراضي المقدّسة، ولكنّهم شدّدوا على ذكر أسوار دمشق التي هرب القدّيس بولس عبر نافذة منها خوفًا من اليهود الذين أرادوا القبض عليه وقتله، لكي لا ينسى الأوروبيّون أنّ هذه المدينة ورد ذكرها في الكتاب المقدّس وتضمّ أماكن مقدّسة.[٨] إنّ الحنين إلى مملكة القدس اللاتينيّة يظهر بوضوح في وصف الحجّاج الأوروبيّين لمدينة دمشق لدى زيارتهم لها. فوصف أرنولد فون هارف لأسوارها قائلًا إنّ هذه الأسوار، مع أسوار الإسكندريّة في مصر، التي لا يوجد الكثير منها في البلاد التي يحكمها المسلمون، "*بناها أولًا المسيحيّون*" (Von Harff 1946: 230)[٩]، وما ذكره مارتينو بومغرتنر أنّ قسمًا من سور دمشق تهدّم لدى هجوم جيش تيمورلنك على المدينة (عام ١٤٠٠-١٤٠١)، وأظهر وجود باب قديم جدًّا للمدينة يحمل نقشًا يجسّد رسمًا للإنجليّين الأربعة وهو دليل على أنّ المسيحيّين كانوا يحكمون المدينة (Baumgartner 1721, II-III: 587)[١٠]، ما هو إلّا محاولة لإعادة إحياء صورة دمشق المجيدة على الرغم من فشل الفرنج في الإستيلاء عليها وحدوث تغييرات عسكريّة وسياسيّة في الشرق ساهمت في القضاء النهائي على الوجود اللاتيني.

وعلى عكس ما دوّنه الحجّاج الأوروبيّون عن دمشق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بتركيزهم فقط على الناحية الدينيّة لأسوار المدينة، فإنّ الحجّاج الأوروبيّين منذ القرن

---

[٨] بالإضافة الى النافذة في السور التي هرب منها القدّيس بولس، كان الحجّاج الأوروبيّون يزورون منزل حنانيا، والمكان الذي قتل فيه قايين شقيقه هابيل، والمكان الواقع خارج دمشق على بعد مسافة ميل (١,٦ كيلومترًا) حيث ظهر الرب يسوع المسيح للقدّيس بولس ويقال إنّ هذا المكان يوجد فيه رأس القدّيس جاورجيوس (Frescobaldi 1948: 83-84; Di Varthema 1863: 12).

[٩] "*The town is also surrounded with walls, of which there are not many in heathen lands, except Damascus and Alexandria, which were first built by the Christians*".

[١٠] "*Ante hoc nempe Damascus a Tamburlano Schyta excise, muro inhabitabatur interrupt. Extat tamen et hodie porta quaedam pervetusta, continens quatuor Evangelicarum in formis insculptas imagines: quae res cam Civitatem olim Christianos tenuisse indicio est*".

الرابع عشر جمعوا معلومات دينيّة، وعسكريّة، وتاريخيّة عن أسوار دمشق وتوسّعوا في وصفها. وكان لمدينة دمشق أثرًا كبيرًا على الأوروبيّين الذين يزورونها، فكانوا مبهورين بكبرها وبغناها وبجمالها وبعظمة عمرانها وبما تحويه من خيرات وثروات، فكانوا يسمّونها "*المدينة النبيلة*" أو "*المدينة الأكثر نبلاً*". وتفاوت اهتمام الحجّاج الأوروبيّين بأسوار دمشق وفقًا للزمن الذي قصدوا خلاله المدينة والظروف التي كانت تشهدها العلاقات بين أوروبا والسلطنة المملوكيّة. فأوّل وصف دقيق ومفصّل لأسوار دمشق ذكره الحاج الفلورنسي جورجيو غوتشي العام ١٣٨٤. وقد جاءت زيارته مع رفيقيه لدمشق بعد سنة من الهجمات التي وجّهها الجنويّون، العام ١٣٨٣، ضدّ صيدا وبيروت اللتين كانتا تتبعان نيابة دمشق وفق التقسيم الإداري المملوكي (مكرزل ٢٠١٦: ١٣٧-١٧١). واستمرّت هجمات الجنويّين على الموانئ والمدن الساحليّة في الشام ومصر حتّى العام ١٣٨٦ (Ashtor 1975: 3-44). والحديث عن أسوار دمشق في كتابات الحاج الفلورنسي جورجيو غوتشي يأتي في إطار جمع معلومات عسكريّة عن المدينة يمكن الاستفادة منها في كلّ مخطّط عسكري يهدف إلى استعادة الأرض المقدّسة خاصّةً وأنّه منذ نهاية القرن الثالث عشر وحتّى منتصف القرن الرابع عشر، بدأت تظهر في أوروبا مشاريع إعداد حملات عسكريّة، على غرار "الحملات الصليبيّة"، لاستعادة الأرض المقدّسة ومحاولة إعادة إحياء دويلات الفرنج في الشرق التي زال وجودها العام ١٢٩١. كانت الخطط تقضي بفرض حصار بحري على مصر لشلّ اقتصادها، وإنزال جيوش على الساحل الشمالي لبلاد الشام والتحالف مع المغول (سانوتو ١٩٩١؛ Paviot 2008; Paviot 2014). واستمرّت هذه المشاريع حيّةً في أذهان بعض الملوك والأمراء الأوروبيّين طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فقد حاول بعض الأمراء الأوروبيّين إعادة إحياء "الحملات الصليبيّة"، أبرزهم هنري الخامس ملك إنكلترا الذي أرسل إلى الشرق غيلبير دو لانوا العام ١٤٢١، وفيليب لو بون Philippe le Bon دوق بورغونيا الذي أوفد برتراندون دو لا بروكيير العام ١٤٣٢، لجمع معلومات عسكريّة تمهيدًا لتنظيم "حملة صليبيّة"، ولكنّ الانقسامات بين الحكّام والظروف السياسيّة والعسكريّة التي كانت سائدة في أوروبا حالت دون الإتفاق على تنظيم حرب شاملة على المماليك. وخلال تلك الحقبة، هاجمت مراكب الجنويّين، والقبارصة، والكتلان، وفرسان القدّيس يوحنّا مدن وموانئ السلطنة المملوكيّة مرّات عديدة، في ظروف ولأسباب مختلفة، بهدف تحقيق انتصارات تتيح احتلال بعض المواقع الساحليّة والتمركز فيها لتسهيل التوسّع نحو الداخل أو تشكيل وسيلة ضغط على السلطان المملوكي لتحقيق بعض المكاسب التي يمكن أن تحسّن وضع الأوروبيّين في تجارتهم مع بلاد الشام ومصر.

أمّا التركيز على أسوار مدينة دمشق دون غيرها من مدن الشام، فيعود إلى أنّ دمشق كانت المدينة الوحيدة في بلاد الشام التي تملك تحصينات قويّة، تحميها أسوار وأبراج منيعة، وتقيم فيها حامية عسكريّة مع كامل عتادها وأسلحتها، بينما مدن الساحل كانت خالية من التحصينات، ومعظمها لا تضمّ أسوارًا إلّا من جهة البحر في حين أنّ الأقسام الأخرى مفتوحة نحو الداخل من دون دفاعات. فقد كان المماليك يخشون أن يتمركز الأوروبيّون في المدن الساحليّة لأنّه لم يكن لديهم أسطولًا لحماية السواحل الشاميّة والمصريّة، لذلك لجأوا إلى تدمير المدن الساحليّة التي استعادوها منذ العام ١٢٩١ وهدموا الأسوار والدفاعات المحيطة بها لكي لا يتمكّن الأوروبيّون، من احتلالها والتمركز فيها، فكانت نتيجة ذلك أن أصبح القسم الأكبر من مدن عكّا، ويافا، وقيصريّة، وصور، وصيدا، خرابًا وخلت هذه المدن من معظم سكّانها

بعد أن كانت في السابق مدنًا مزدهرةً ومحطّات تجاريّة رئيسيّة. وحدها بيروت نجت من الخراب واكتفى المماليك بتفكيك تحصيناتها وترحيل سكّانها من الفرنج (Fuess 2001: 45-71). أنشأ نوّاب دمشق المماليك بعض الدفاعات في بيروت وصيدا من جهة البحر لمواجهة أيّ هجوم قد تتعرّض له هاتان المدينتان، فبنوا أبراجًا صغيرةً يحرسها جنود مسلّحون، في حين أنّ الخط الدفاع الرئيسي عن هاتين المدينيتن أقيم في التلال المحيطة بهما، حيث يقيم بنو بحتر في منطقة الغرب، وتتواجد فرق من أجناد الحلقة،[١١] الذين كانوا يشكّلون سندًا للجيش المملوكي المتمركز في مدينة دمشق. كان يمكن للعسكر المملوكي التحرّك بسرعة من دمشق إلى بيروت وصيدا، فالمسافة بين هاتين المدينتين ودمشق هي حوالى ستّون ميلاً (٩٦ كيلومترًا) يمكن أن يقطعها الفرسان خلال يوم واحد.[١٢]

كانت المعلومات عن أسوار دمشق وتحصيناتها قد صارت، في القرن الخامس عشر، معروفة في أوروبا. لذلك خفّ اهتمام الحجّاج الأوروبيّين تدريجيًّا بأسوار دمشق، وصاروا يصفونها بشكل مقتضب، والبعض منهم لا يأتِ على ذكرها إطلاقًا. في المقابل بدأت تظهر، منذ منتصف القرن الخامس عشر، في كتابات الحجّاج الأوروبيّين معلومات جديدة تفيد أنّ باني أسوار دمشق هو أوروبي من مدينة فلورنسا الإيطاليّة. فما مصدر هذه الرواية؟ وما حقيقتها؟

كان الحاج أنسيلمي أدورنو أوّل من ذكر رواية الفلورنسي الذي بنى أسوار دمشق وأفاد بأنّ رنكه وشعار مدينة فلورنسا لا يزالان ظاهرين على الأسوار. فمنذ القرن الحادي عشر، كان شعار مدينة فلورنسا عاصمة مقاطعة توسكانا Toscana الإيطاليّة زهرة الزنبق ملوّنة بالأحمر مرسومة على ترس فضّي. ومنذ العام ١٢٦٦، أصبح شعار مدينة فلورنسا زهرة الزنبق والأسد.

رسم١: رسم شعار مدينة فلورنسا

لم يصف أدورنو الرنك وشعار فلورنسا اللذين شاهدهما، ولكن مارتينو بومغرتنر ذكر وجود شعار فلورنسا على سور دمشق وهو عبارة عن أسد (Baumgartner 1721, II-III:

[١١] أجناد الحلقة هم فرسان من غير المماليك في خدمة السلطان، يشكّلون أحد الفرق الرئيسيّة الثلاث التي تؤلّف الجيش المملوكي (Ayalon 1953: 203; Poliak 1977: 2).

[١٢] للمعلومات عن الطريق الذي يفصل بيروت عن دمشق، راجع: (Moukarzel 2010: 161-172).

587)[١٣]. على الأرجح أنّه رأى نقش أسد فربط بينه وبين رنك الأسد (الذي يُعرَف بإسم مرزوكو Marzocco) الذي كان شعار مدينة فلورنسا: الأسد جالس ويضع قبضته على زهرة الزنبق شعار مدينة فلورنسا.

رسم ٢: أسد مع زهرة الزنبق شعار مدينة فلورنسا
تمثال في ساحة فلورنسا (alamyimages.fr)

كان الأسد شعار السلطانين بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) وبرسباي (١٤٢٢-١٤٣٧) وتمّ نقشه على عدد من الأبنية التي شيّدت في عهديهما وقد أخذت نقوش الأسود في العصر المملوكي الأشكال التالية (Balog 1977: 195):[١٤]

[١٣] "*Hic verò Florentinus Damascum his, qui nunc extant, muris pro majori parte cinxit et munivit, eisque Leonem, florentinae Civitatis insignium insculpsit*".

[١٤] وبالإضافة إلى ذلك، نقش السلاطين المماليك شعارهم على قطع العملة النقديّة التي سكّت في عهدهم وحمل بعضها رسم زهرة الزنبق، والأسد، ورسوم أخرى مختلفة (Allan 1970: 99-112; Balog 1977: 183-211). نشير إلى أنّ المؤرّخين لا يتّفقون بخصوص رسم الأسد الذي اتّخذه السلطانان بيبرس وبرسباي شعارًا لهما. فالبعض منهم يقول إنّه أسد، في حين أنّ البعض الآخر يعتبر أنّه فهد أو نمر أو بَبر. للمعلومات عن هذا الموضوع، راجع: (Thorau, 1992; Gazagnadou, 1989: 98-101).

رسم٣: أشكال الأسود التي اتخذها السلاطين المماليك شعارًا لهم

تختلف أشكال الأسود، التي نقشها السلاطين المماليك على الأبنية والنقود، عن شكل أسد فلورنسا. ولا يمكن الجزم أنّ مارتينو بومغرتنر شاهد نقش أسد يشبه شعار فلورنسا، أيّ أسد جالس واضع قبضته على زهرة الزنبق، والاحتمال الأكثر ترجيحًا أن يكون قد رأى أسدًا وإلى جانبه زهرة زنبق. ومن جهته، تحدّث أنسيلمي أدورنو عن نقشين على سور دمشق، أحدهما رنك الفلورنسي باني السور، والآخر شعار فلورنسا، فمن غير المستبعد أن يكونا أسدًا وزهرة زنبق، وأن يكون قد اعتبر أنّ الأسد هو رنك الفلورنسي وزهرة الزنبق شعار فلورنسا.

لم يقتصر حفر شعار مدينة فلورنسا على أسوار دمشق فقط بل أيضًا على جدران قلعتها. فقد ذكر لودوفيكو دي فارتيما أنّ شعار مدينة فلورنسا محفور بالرخام عند كل زاوية من قلعة دمشق. وأضاف أنّ باني قلعة دمشق هو مملوك من أصل فلورنسي كان حاكم المدينة. ونقل لودوفيكو دي فارتيما روايةً شبيهةً برواية الفلورنسي باني أسوار دمشق، مفادها أنّ مملوكًا فلورنسيًّا كان في خدمة السلطان، ونجح في شفاء السلطان من السمّ بعد أن عجز هذا الأخير عن إيجاد أحد يستطيع مداواته. فكافأه السلطان بإعطائه مدينة دمشق. وعندما توفي الفلورنسي، كرّمه سكّان دمشق وجعلوه وليًّا لما كان له من حكمة عظيمة ومنذ ذلك الحين أصبحت قلعة دمشق ملكًا للسلطان (Di Varthema 1863: 9-10)[١٥].

[١٥] "*You must know that in the said city of Damascus there is a very beautiful and strong castle, which is said to have been built by a Florentine Mameluke at his own expense, he being lord of the said city. And, moreover, in each angle of the said castle, the arms of Florence are sculptured in marble… This Florentine was a Mameluke of the Grand Sultan; and it is reported that in his time the Sultan was poisoned, and could find no one who could relieve him of the said poison, when it pleased God that this Florentine should cure him. For this service he gave him the said city of Damascus, and thus he came to build the castle. Afterwards, he died in Damascus; and the people held him in great veneration as a holy man, possessing*

في مقابل ما أورده الحجّاج الأوروبيّون عن الفلورنسي وشعار مدينة فلورنسا المحفور على أسوار وقلعة دمشق، كان رنك السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢-١٣٨٩؛ ١٣٩٠-١٣٩٩) زهرة الزنبق أيضًا. فيوجد نقش لزهرة الزنبق على عضادتي باب الفرج الشمالي في دمشق اعتبره المؤرّخون شعار السلطان برقوق.

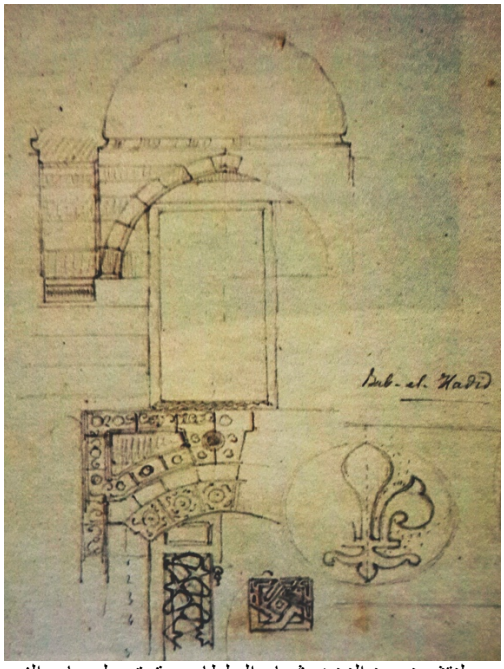

رسم ٤: رسم لنقش زهرة الزنبق شعار السلطان برقوق على باب الفرج الشمالي
(Mouton, Guilhot, Piaton 2018: 69)

ولم يقتصر نقش رنك السلطان برقوق على أسوار دمشق فقط، بل تمّ نقشه أيضًا على مبانٍ أخرى في المدينة. فقد أورد الحاج الفرنسي برتراندون دو لا بروكيير الذي زار دمشق العام ١٤٣٢ أنّه يوجد في المدينة خان يُعرَف بإسم "خان برقوق" ومنقوش على أحد حجارته رنك السلطان الذي هو عبارة عن زهرات الزنبق. ونظرًا لتشابه شكل أزهار الزنبق التي اعتمدها السلطان برقوق كرمز له مع شعار مملكة فرنسا، اعتقد برتراندون دو لا بروكيير أنّ برقوق أصله فرنسي (De La Broquière 1892, XII: 36-37)[١٦].

---

great knowledge, and from that time forward the castle has always been in the possession of the Sultan".

[١٦] "*Et croy qu'il fu du royaulme de France, car il y a entaillé une pierre de ladite maison les fleurs de lis et samble qu'elles y soient depuis que ladite maison fu faicte premierement*".

رسم ٥: زهرة الزنبق شعار مملكة فرنسا
https://fr.wikipedia.org/wiki/Fleur_de_lys)

لا يمكن إعطاء تفسير واضح لوجود نقش زهرة الزنبق والأسد على أسوار وقلعة دمشق، من خلال ما أورده الحجّاج الأوروبيّون من معلومات. فمن المؤكّد أنّ وجود نقش على أسوار دمشق يعود إلى ما بعد العام ١٣٨٤ لأنّ الحاج الفلورنسي جورجيو غوتشي الذي أعطى وصفًا مفصّلاً عن أسوار دمشق لم يذكر وجود نقش عليها. من جهة أخرى، يفيد إبن صصرى في كتابه "الدرّة المضيئة في الدولة الظاهريّة"، الذي يغطّي أحداث مدينة دمشق في الحقبة الممتدّة من العام ١٣٨٩ إلى العام ١٣٩٧، أنّه في العام ١٣٩٠/٧٩٢ انهار برج في سور دمشق من جهة باب الجابية (في الطرف الغربي للمدينة) بسبب حريق، فأعاد السلطان برقوق بناءه في ليلة واحدة، واشتغل البنّاؤون والصنّاع على ضوء الشمع والمشاعل "*وما طلعت الشمس حتّى طلع البرج وارتفع كأنّه ما وقع*" (إبن صصرى ١٩٦٣: ٤٨). لا تذكر المصادر أنّ السلطان برقوق أجرى بناءات في أسوار دمشق وفي قلعتها، كما أنّ البرج الذي أعاد بناءه يقع جهة باب الجابية غرب دمشق، وتمّ بناؤه بسرعة فلا يمكن أن يكون للعمّال متّسعًا من الوقت للنقش على حجارته، بينما زهرة الزنبق التي ظلّت ظاهرة على السور منقوشة في مكان آخر منه على جانبي باب الفرج الشمالي. لهذه الأسباب لا يمكن الجزم أنّ زهرة الزنبق الموجودة على سور دمشق هي شعار السلطان برقوق.

كما أنّه لا يمكن عدم الأخذ بشكل كامل بصحّة الرواية التي تداولها الحجّاج الأوروبيّون منذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر على الرغم من إختلاف بعض أحداثها والمبالغة فيها. ففي تلك الحقبة، ومن خلال ما تورده المصادر المعاصرة، إرتفع عدد المسيحيّين الأوروبيّين الذين اعتنقوا الإسلام في السلطنة المملوكيّة، وخصوصًا في نيابة دمشق، لأسباب إقتصاديّة وسياسيّة، إذ يذكر فرنشيسكو سوريانو Francesco Suriano رئيس دير الرهبان الفرنسيسكان في بيروت بين عامي ١٤٨١ و١٤٨٤ أنّ كنيسة الفرنسيسكان في بيروت كانت "*خلاص وملجأ كلّ العبيد المسيحيّين والمرتدّين* (المماليك من أصل أوروبي)، *الذين يهربون إليها طلبًا للحريّة حيث يخبّئوهم الأخوة الرهبان ويعيدونهم إلى البلاد المسيحيّة* (أوروبا) *على متن السفن التي ترسو هنا* (أي في ميناء بيروت). *بسبب شهرة هذا الدير يلجأ إليه كل العبيد المسيحيّين والمرتدّين* (المماليك من أصل أوروبي) *من كلّ المناطق الإسلاميّة، وفي كلّ سنة يخلّص الأخوة الرهبان الكثير من الأنفس*" (Suriano 1983: 169). وكثير من الأوروبيّين المقيمين في دمشق، أو في السلطنة المملوكيّة عامّةً، تمكّنوا أن يتولّوا مناصب رفيعة في

الإدارة وصاروا مقرّبين من السلطان أو نوّابه في المدن الكبرى. والمصادر حافلة بأسماء أشخاص معظمهم إيطاليّون، إعتنق بعضهم الإسلام ولعبوا دورًا كبيرًا في السلطة، نذكر منهم على سبيل المثال الجنوي سيغورانو-سكران سالفايغو Segurano-Sakrān Salvaygo في مطلع القرن الرابع عشر (مكرزل ٢٠١٧: ٥٨١-٦٠٨)، وجنوي يدعى لوسيان دولوا Lucien Deloit اتّخذ اسم ناصر الدين بعد تحوّله إلى الإسلام (Kedar 1976: 135-136)، وترجمان السلطانين المؤيد شيخ (١٤١٢-١٤٢١) وبرسباي (١٤٢٢-١٤٣٧) الجنوي جوهانس سايبن Johannes Saiben الذي صار اسمه سيف الدين سنقر (Apellániz 2004: 297; Thomas 1966, 2: 327)، وترجمان الفرنج في مصر الذي اعتنق الإسلام وصار اسمه تمربغا القجماسي وتمّ تعيينه العام ١٤٨٩ ناظر الجيش في دمشق، ودوادار السلطان قانصوه الغوري العام ١٥٠٢ الذي كان من أصل أوروبي يدعى جانبك الفرنجي (إبن طولون ١٩٦٢-١٩٦٤: ٣٩، ١١٥)، وعام ١٤٨١ كان من بين مرافقي أمير نيابة صفد ثلاثة مماليك من أصل فرنسي من مدينة بوردو Bordeaux (Van Ghistele 1998: 113). لقد كان السلاطين ونوّابهم، من كبار الأمراء المماليك، يقرّبون منهم بعض الأوروبيّين النافذين والأغنياء، الذين كان باستطاعتهم توفير خدمات للسلطة (نقل معلومات، توفير أموال، دور الوساطة مع الحكّام الأوروبيّين، القيام بمهمّات دبلوماسيّة، الخ...). ما أفسح المجال أمامهم لتثبيت موقعهم في مراكز السلطة وتولي مناصب إداريّة وعسكريّة هامّة. ولكنّ أدوارهم ومناصبهم لم تكن ثابتة أو متوارثة بل كانت تختلف وفقًا للحقبات والظروف[١٧]. لذلك، من الممكن جدًّا، ونتيجة تزايد نفوذ الأوروبيّين لدى السلطان وكبار الأمراء في القرن الخامس عشر، أن يكون أحد المماليك من أصل فلورنسي قد احتلّ مكانةً عالية لدى السلطان أو نائب دمشق وساهم في بناء القسم الأكبر من أسوار دمشق ودفاعاتها ونقش عليها زهرة الزنبق والأسد شعار مدينة فلورنسا.

ومن جهة أخرى، علينا أن نأخذ بالاعتبار أنّ الرسوم المنقوشة على جدران أسوار دمشق وأبراجها، وقلعتها، وغيرها من المباني في المدينة، قد تكون رسومًا منقوشةً على حجارة كانت في الأساس جزءًا من مبانٍ شيّدها الفرنج خلال تواجدهم في الشرق، وجرى إستخدام هذه الحجارة في العهود اللاحقة لبناء أسوار ودفاعات ومبانٍ. وعندما تنبّه الحجّاج الأوروبيّون لوجود نقوش زهرة الزنبق والأسد على أسوار دمشق وقلعتها، ربطوا بينها وبين شعارات فلورنسا ومملكة فرنسا، وأطلقوا العنان لمخيّلتهم بنسج روايات عن باني الأسوار والقلعة، واستمرّ هذا الاعتقاد سائدًا حتّى منتصف القرن السادس عشر. إذ عندما زار الفرنسي بيار بولون Pierre Belon دمشق العام ١٥٤٧، تحدّث عن وجود برج مربّع في سور دمشق لجهة الشرق، في أعلاه نقش باللغة العربيّة، وتحته بقليل زهرتا زنبق محفورتان على قطعة من الرخام وإلى جانبهما أسد، وأورد أنّهما شعارا فرنسا أو فلورنسا (Belon 2001: 91).[١٨]

---

[١٧] راجع حول هذا الموضوع (Moukarzel 2017: 353-380).

[١٨] بيار بولون كان آخر أوروبي زار دمشق وربط بين زهرة الزنبق والأسد وشعاري فلورنسا ومملكة فرنسا. ففي العام ١٦٥٨ زار دمشق الفرنسي لوران دارفيو Laurent D'Arvieux وأفاد أنّه من جهة باب شرقي، يوجد برج مربّع كبير، منفصل عن السور، على جدرانه نقوش لزهرتي زنبق وأسدين وفي وسطهم كتابة باللغة العربيّة محفورة على قطعة من الرخام، ولكنّه لم يقل شيئًا بخصوص تشابه هذه النقوش وشعاري فرنسا وفلورنسا. والفرنسي جان دو تفونو Jean de Thévenot أيضًا، العام ١٦٦٣، ذكر وجود زهرتي لوتس

وما يدفعنا إلى القول إنّه من غير المستبعد أن تكون الحجارة التي تحمل نقشي زهرة الزنبق والأسد مأخوذة من مبانٍ عمّرها الفرنج، هو وجود نقش زهرة الزنبق على الكثير من الأبنية في العصر المملوكي. فمثلًا، يوجد من هذا النقش العشرات على عمارة طرابلس المملوكيّة (تدمري ١٩٩٥: ٣٥)، ويوجد عدد منه أيضًا في مدينة صلخد (جنوب سوريا): فقد ذكر قنصل بروسيا في دمشق جوهان غوتفريد وتزستين Johann Gottfried Wetzstein (١٨٤٩-١٨٦١) أنّه شاهد نقوش أزهار الزنبق الفرنسيّة على جدران مسجد في مدينة صلخد الذي كان في الأساس كنيسة فرنجيّة وأيضًا على حجر كبير عند المدخل الرئيسي للمدينة (Wetzstein 1860: 70)[١٩].

خاتمة

لم يكن الحجّاج الأوروبيّون متخصّصين في كتابة التاريخ، وما نقلوه من معلومات ومعاينات شخصيّة لم يرقَ إلى مستوى الدقّة والعمق وغزارة المعلومات التي تميّزت بها كتب التاريخ التي دوّنها مؤرّخون إيطاليّون، تحديدًا من مدينة البندقيّة أمثال دومينيكو ماليبييرو Domenico Malipiero، وجيرولامو بريولي Girolamo Priuli، ومارينو سانوتو Marino Sanuto، تناولوا أوضاع الشرق معتمدين على السجلّات الرسمية في مدينة البندقيّة وعلى التقارير والرسائل التي كان يكتبها التجّار البنادقة المقيمون في الشرق. كما أنّ إزدياد سفر الحجّاج الأوروبيّين إلى الشرق منذ أواخر القرن الرابع عشر، وكتابة مشاهداتهم للأماكن التي زاروها، والخبرات التي اكتسبوها من خلال تعاطيهم مع السكّان المحلّيّين، أدّت إلى نشر الكثير من المعلومات عن الشرق فأصبح من الصعب جدًّا أن يتضمّن كتاب معلومة غير معروفة في الغرب الأوروبي. لذلك كان الحجّاج يبحثون عن معلومة جديدة لم يرد ذكرها في كتابات عصرهم تضفي على ما ينقلونه ميزة فريدة وتجعل منها مصدرًا لا يمكن التغاضي عنه، يثير الفضول من جهة، ويعيد الحنين للأوروبي إلى الشرق من جهة ثانية. فوجدوا منذ القرن الخامس عشر مبتغاهم في النقوش المحفورة على أسوار دمشق وقلعتها وغيرها من الأبنية، وربطوا بينها وبين شعاري فلورنسا وفرنسا، وأخذت قصّة الفلورنسي باني القسم الأكبر من أسوار دمشق وقلعتها حيّزًا كبيرًا في وصف المدينة التي احتلّت مكانةً هامّةً لدى الأوروبيّين كونها من أكبر وأغنى مدن السلطنة المملوكيّة. ولكنّ هذه الرواية، أكانت حقيقة أو من نسج الخيال، لم تدم إلّا لمدّة محدودة (بين العامين ١٤٧٥ و١٥٠٨) واختفت مع نهاية

وأسدين عند باب شرقي ولم يأتِ على ذكر علاقة هذه النقوش بفلورنسا وفرنسا (D'Arvieux 1982: 202; De Thévenot 1687, I: 218).

ونشير إلى أنّ بعض المسافرين الذين مرّوا بدمشق في أواخر القرن السادس عشر لم يعطوا أيّ وصف لسور دمشق. فمثلًا، زار دمشق العام ١٥٨٩ الفرنسي جاك دو فيللامون Jacques De Villamont، وعلى الرغم من وصفه الدقيق لمدينة دمشق لم يذكر شيئًا عن أسوار المدينة (De Villamont 1610, III: 230).

[١٩] "*Die Moschee selbst scheint eine kirche gewesen und fränkischen ursprungs zu sein, dem die französischen Lilien finden sich nicht nur in der genannten Moschee, .sondern auch auf einem grofsen Quadersteine, der am Hauptthore der Stadt liegt*"

العصر المملوكي. كما أنّها لم تترك لها أثرًا لا في المصادر العربيّة المكتوبة ولا في ذاكرة سكّان دمشق، فكأنّها لاقت رواجًا في المرحلة التي كثر فيها عدد الأوروبيّين الذين اعتنقوا الإسلام وتولّوا مناصب هامّة في دمشق، وزالت مع انتهاء حكم المماليك وبداية مرحلة جديدة مع الأتراك العثمانيّين. كان الهدف من خلال ما جمعه الحجّاج الأوروبيّون منذ أواخر القرن الرابع عشر وحتّى مطلع القرن السادس عشر من معلومات عن دمشق وأسوارها وعن كل أثر ديني فيها يمكن أن يكون له علاقة بالمسيحيّين وبتاريخ الوجود الفرنجي في الشرق، تشجيع الأوروبيّين، خصوصًا الحجّاج، على زيارة الشرق وعدم نسيانه. ففي أواخر القرن الخامس عشر، انخفض عدد الحجّاج الأوروبيّين إلى الأرض المقدّسة بسبب التوسّع التركي في بحر إيجه والبحر المتوسّط، والحروب بين البنادقة والأتراك، فخفّ الحماس الديني لدى الأوروبيّين ولم يعد السفر إلى الشرق والحجّ في طليعة اهتماماتهم (Tucci 1985: 65).

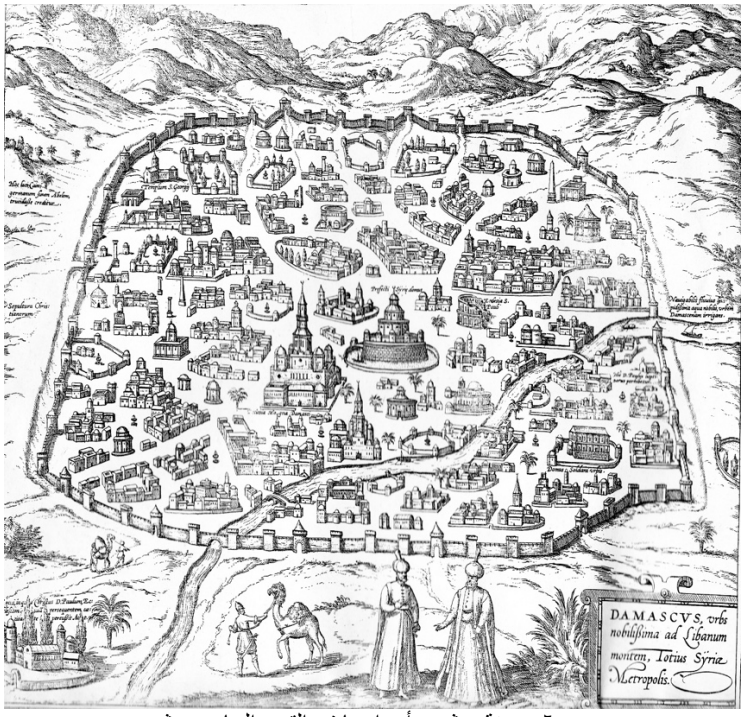

رسم ٦: مدينة دمشق وأسوارها في القرن السادس عشر
(Braun et Hogenberg 1572-1618, I: 55)

المصادر والمراجع

"JOURNAL D'UN PÈLERIN FRANÇAIS EN TERRE SAINTE (1383)", 1895, H. Omont (éd.), *Revue de l'Orient Latin*, III, pp. 457-459.

ADORNO A., 1978, *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Texte édité, traduit et annoté par Jacques Heers et Georgette de Groer, Paris, Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique.

ALARCÓN Y SANTÓN M.A. GARCÍA DE LINARES R., 1940, *Los documentos árabes diplomaticos del archivio de la Corona de Aragon*, Madrid.

ALLAN J.W., 1970, "Mamluk Sultanic Heraldry and the Numismatic Evidence: A Reinterpretation", *The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, n° 2, pp. 99-112.

APELLANIZ F., 2004, "Banquiers, diplomates et pouvoir sultanien. Une affaire d'épices sous les Mamelouks circassiens", *Annales islamologiques*, 38, pp. 285-304.

ASHTOR E., KEDAR B.Z., 1975, "Una guerra fra Genova e i Mamlucchi negli anni 1380", *Archivio Storico Italiano*, nº 133, pp.3-44.

ATIYA A.S., 1938, "Egypt and Aragon. Embassies and diplomatic correspondence between 1300 and 1330 A.D.", *Abhandlungen die kunde des Morgenlandes*, Leipzig, pp. 17-60.

AYALON D., 1953, "Studies on the structure of Mamluk army", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, nº 15, pp. 203-228.

BALOG P., 1977, "New Considerations on Mamluk Heraldry", *Museum Notes (American Numismatic Society)*, vol. 22, pp. 183-211.

BAUMGARTNER M., 1721, "Ephemeris sive diarium peregrinationis, transmarinae, videlicet Aegypti, Montis Sinai, Terrae Sanctae ac ultimo Syriae anno domini 1507 et sequenti", C.D. Norimb (éd). *Georgii Gemnicensis ephemeris peregrinationis transmarinae. Thesauri anecdotorum*, Liber II- III, Wien/Graz.

BELON P., 2001, *Voyage au Levant (1553), Les observations de Pierre Belon du Mans*, Texte établi et présenté par Alexandre Merle, Paris, Éditions Chandeigne.

BRAUM G. ET HOGENBERG F., 1572-1618, *Civitates Orbis Terrarum*, in six parts, vol. I, Parts 1 /2 with an introduction by R.A.Skelton, Theatrum Orbis Terrarum LTD, Amsterdam (1965).

CASTELLANI E., 1922, *Catalogo dei firmani ad altri documenti legali emanati in lingua araba e turca concernenti i Santuari le proprietà i diritti della Custodia di Terra Santa conservati nell'Archivio della stessa Custodia in Gerusalemme*, Tipografia dei PP. Francescani, Gerusalemme.

D'ARVIEUX L., 1982, *Mémoires par Laurent D'Arvieux*, Introduction, notes et index par Antoine Abdelnour, Beyrouth, Éditions Dar Lahad Khater.

DANSETTE B., 1979, "Les pèlerinages occidentaux en Terre Sainte : une pratique de la « dévotion moderne ». Relation inédite d'un pèlerinage effectué en 1468", *Archivium franciscanum historicum*, 72, pp. 106-133, 330-428.

DE BOLDENSELE G., 1997, "Traité de l'état de la Terre Sainte", *Croisades et pèlerinages. Récits, chroniques et voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle*, édition établie sous la direction de Danielle Régnier-Bohler, Paris, éd. Robert Laffont, pp. 996-1031.

DD LA BROQUIÈRE B., 1892, *Le voyage d'outremer de Bertrandon de La Broquière*, Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'à la fin du XVIe siècle, Publié sous la direction de Charles Schefer et Henri Cordier, T. XII, Paris.

DE LANNOY G., 1840, *Voyages et ambassades de Messire Guillebert de Lannoy 1399-1450*, Mons.

DE SUDHEIM L., 1884, "De itinere Terre Sancte", W.A.Neumann (éd), *Archives de l'Orient Latin*, II, Paris, Ernest Leroux, pp. 305-377.

DE THÉVENOT J., 1687, *The travels of Monsieur De Thévenot into the Levant*, Part 1, London.

DE TYR G., 1824, *Histoire des Croisades*, T. III, Paris.

DE VILLAMONT J., 1610, *Les voyages du seigneur De Villamont*, Livre III, Paris.

DI VARTHEMA L., 1863, *The travels of Ludovico di Varthema, Egypt, Siria, Arabia Deserta and Arabia Felix, in Persia, India, and Ethiopia, A.D. 1503 to 1508*, Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Johns, and edited

with notes and an introduction by George Percy Badger, Printed for the Hakluyt Society, London.

FRESCOBALDI L., GUCCI G., SIGOLI S., 1948, *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli*, Translated from the Italian by Fr. Theophilus Bellorini O.F.M. and Eugene Hoade O.F.M. with a preface and notes by Fr. Bellarmino Bagatti O.F.M., Printed by Franciscan Press, Jerusalem.

FUESS A., 2001, "Rotting ships and razed harbours: The naval policy of the Mamluks", *Mamluk Studies Review*, nº 5, pp. 45-71.

GARCIN J.-C., 1995, "Les villes", *États, sociétés et culture du monde musulman médiéval Xe-XVe siècle*, T. II, Paris, Puf, Nouvelle Clio, pp. 129-171.

GAZANADOU D., 1989, "Note sur une question d'héraldique Mamluke. L'origine du 'Lion passant à gauche' du Sultan Baybars I al-Bunduqdârî", *Der Islam* 66/1, pp. 98-101.

GOLUBOVICH G., 1913, *Biblioteca Bio-Bibliografica della Terra Santa e dell'Oriente franciscano*, III, Firenze, Quaracchi.

GRABOÏS A., 1998, *Le pèlerin occidental en Terre Sainte au Moyen Âge*, Paris-Bruxelles, De Boeck Université.

KEDAR B.Z., 1976, *Merchants in crisis. Genoese and Venetian men of affairs and the fourteenth-century depression*, New Haven, Yale University Press.

MARAVAL P., 2001, *Le Christianisme de Constantin à la conquête arabe*, Paris, Puf, Nouvelle Clio.

MARAVAL P., 2002, *Récits des premiers pèlerins chrétiens au Proche-Orient (IVe-VIIe siècle)*, Textes choisis, présentés, traduits et annotés par Pierre Maraval, Paris, Les Éditions du Cerf.

MICHAUD J.-F., 1825, *Histoire des Croisades*, *Deuxième partie contenant l'histoire des deuxième et troisième Croisades*, T. II, Paris, Librairie Palais Royal.

MICHAUD J.-F., 1829, *Bibliothèque des Croisades*, T. I, Paris, Libraire-éditeur A. J. Ducollet.

MOUKARZEL P., 2010, *La ville de Beyrouth sous la domination mamelouke (1291-1516) et son commerce avec l'Europe*, Baabda, Éditions de l'Université Antonine.

MOUKARZEL P., 2017, "Les élites chrétiennes latines dans le sultanat mamelouk (XIII^e-XV^e siècle). Le cas des communautés de marchands italiens", *Élites chrétiennes et formes du pouvoir en Méditerranée centrale et orientale (XIII^e-XV^e siècle)*, Sous la direction de Marie-Anna Chevalier et Isabelle Ortega, Paris, Classiques Garnier, pp. 353-380.

MOUTON J.-M., GUILLOT J.-O., PIATON C., 2018, *Portes et murailles de Damas de l'Antiquité aux premiers Mamlouks. Histoire, architecture, épigraphie*, Beyrouth-Damas, Presses de l'Ifpo.

PARIS M.P., 1882, "Itinéraire de Londres à Jérusalem", *Itinéraires à Jérusalem et description de la Terre Sainte rédigés en français aux XIe, XIIe et XIIIe siècles*, publiés par Henri Michelant et Gaston Raynaud, Genève, Imprimerie Jules-Guillaume Fick.

PAVIOT J. (éd.), 2014, *Les projets de croisade. Géostratégie et diplomatie européenne du XIV^e au XVII^e siècle*, Toulouse, Presse Universitaires du Mirail.

PAVIOT J., 2008, *Projets de Croisade (v.1290-v.1330)*, Documents relatifs à l'histoire des Croisades. Tome XX, Paris, Éd. Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

POLIAK A., 1977, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon 1250-1900*, 2^e ed., Philadelphia, Porcupine Press.

RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES. HISTORIENS OCCIDENTAUX, 1844-1895, T. I-V, Paris.

RÖHRICHT R., 1900, *Deutsche pilgerreisen nach dem Heiligen Lande*, Universitats-Buchhandlung.

RÖHRICHT R., MEISNER H., 1880, *Deutsche pilgerreisen nach dem Heiligen Lande*, Berlin, Weidmannsche Buchhandlung.

SURIANO F., 1983, *Treatise on the Holy Land*, Translated by T.Bellorini and E.Hoade with a preface and notes by B.Bagatti, Jerusalem, Franciscan Printing Press.

TARIFA ZOE NOTICIA DY PEXI E MEXURE DI LUOGI E TERE CHE S'ADOVRA MARCADANTIA PER EL MONDO, 1925, Roberto Cessi e Valerio Orlandoni (ed), Venezia.

THOMAS G.M., 1966, *Diplomatarium Veneto-Levantinum sive acta et diplomata res venetas graecas atque Levantis illustrantia (1300-1350), (1351-1454)*, 2, New York.

THORAU P., 1992, *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the thirteenth century*, Addison-Wesley Longman.

TUCCI U., 1985, “I servizi maritimi veneziani per il pellegrinaggio in Terra Santa nel Medioevo”, *Studi Veneziani*, Nouvelle série, IX, pp. 43-66.

VAN GHISTELE J., 1998, *Tvoyage van mher Joos van Ghistele*, Ambrosius Zeebout, ed. R.J.G.A.A. Gaspar, Hilversum Verloren.

VON HARFF A., 1946, *The pilgrimage of Arnold von Harff*, Translated from the German and edited with notes and introduction by Malcolm Letts, Printed for the Hakluyt Society, London.

WETZSTEIN J.G., 1860, *Reisebericht über Hauran und die trachonen: nebst einem Anhange über die sabäischen Denkmäler in Ostsyrien*, Berlin, Verlag von Dietrich Reimer.